**تفسير الآيات من (74- 83)، العزة في طاعة الله**

بحث فى علم التفسير

إعداد / *أيمن محمد أبو بكر*

قسم الدعوة وأصول الدين

كلية العلوم الإسلامية – جامعة المدينة العالمية

شاه علم - ماليزيا

*ayman.abobakr@mediu.ws*

**الخلاصة – هذا البحث يبحث فى العزة في طاعة الله**

**الكلمات المفتاحية – يخشون، القتال ، طاعه**

* **.المقدمة**

**الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين ، سوف نقوم في هذا البحث بمعرفة العزة في طاعة الله**

* **.عنوان المقال**

**رد القرآن على الذين يخشون القتال:**

**ما زلنا مع آيات سورة النساء، ودعوة القرآن الكريم في هذه السورة المباركة إلى الجهاد في سبيل الله، والقتال في سبيل الله طلبًا لما عند الله . يقول ربنا: {ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ﰋ ﰌ ﰍ ﰎ ﰏ ﰐ ﰑ ﰒ ﰓ ﰔ ﰕ ﰖ ﰗ ﰘ ﰙ ﰚ} [النساء: 77- 79].**

**فانظروا معي -رحمكم الله- إلى تربية القرآن وطريقته في أخذه بقياد النفوس وزمام القلوب إلى طريق الحق:**

**الأمر الأول: يقول ربنا: قل لهم يا نبي الله: {ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ} توجيه الأمر لرسول الله  يثبت أنه عبد الله ورسوله، يؤمر وعليه أن يبلغ، وأن هذا الذي يبلغه إنما هو وحي الله إليه، يقول لهم الرسول  بوحي من الله: {ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ}.**

**قوله: {ﮰ ﮱ} تفيد أن كل ما يتمتع به الناس في هذه الدنيا مما يُطلق عليه أنه متعة ولذة، وشهوة وسعادة وما إلى ذلك، ومما في هذه الحياة من صحة ومال، وولد وزوجة، وبيوت فاخرة، ومراكب وما إلى ذلك مما يستمتع به الناس في حياتهم، كل ذلك متاع قليل، {ﯓ} هكذا تأتي نكرة لتفيد قلة هذا القليل، وأنه لا قيمة له، سبب ذلك لا يخفى عليكم: لأن هذا المتاع موقوت بوقته، لا بد أن يُفارق بأن يتركه الإنسان حين ينتقل من هذه الدنيا إلى عالم الآخرة، وإما أن يُفارق بزواله عن الإنسان.**

**الأمر الثاني: قوله: {ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ} فإن التقوى هي باب السعادة، وباب الفوز في الدنيا وفي الآخرة، وبخاصة في الآخرة، نعم، الفائزون فائزون في الدنيا، ولكن الفوز الحقيقي هناك في الآخرة. إذن فهذه حقيقة يجب أن يعيها الإنسان العاقل من أن الآخرة خير له إذا كان من أهل التقوى؛ لأن هؤلاء المتقين هم الفائزون في جنات النعيم.**

**الأمر الثالث: قوله تعالى: {ﯘ ﯙ ﯚ} أي: أنتم تُجزون بكل عمل تقومون به دون أن يبخسكم الله شيئًا.**

**الأمر الرابع: حقيقة الموت والحياة، والسؤال هنا: هل القعود عن الجهاد والبقاء مع الزوجات والأبناء والأموال وما إلى ذلك، هل هذا يطيل عمرًا؟ وهل الخروج في سبيل الله، ومواجهة أعداء الله يقصر في الأعمار؟ هذه حقيقة لا بد أن يُذكَّر بها دائمًا وأبدًا؛ ليعرف الناس أن الموت حق لا ريب فيه، وأنه موقوت بأنفاس معدودة في أماكن محدودة، إذا جاء الأجل لا يُؤخر للحظة واحدة، بل إلى نفس واحد يخرج، وقد لا يعود، ويدخل وقد لا يخرج؛ ولذلك ترى القرآن هنا يعبر عن هذه الحقيقة تعبيرًا موحيًا معبرًا فيقول: {ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ} هذه حقيقة واضحة جلية في أن الإنسان -وهو في طريقه للحياة- الموت يريد أن يلحق به، وهو في رحلته مسرعٌ يسرع الخطى، إلى أن يلحق به الموت؛ ليكون هو النهاية التي بعدها يكون ما يكون من أمر الله في الحساب وفي الجزاء -ونسأل الله السلامة:**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **إنا لنفرح بالأيام نقطعها** | **\*** | **وكل يوم مضى نقص من الأجل** |

**فقوله: {ﯞ ﯟ} كأن الموت طالب، وهذا الإنسان مطلوب، ولا بد للطالب أن يدرك المطلوب، فهذا تصوير لحقيقة الموت، ومهما بذل الإنسان من أجل أن يطول عمره، ومن أجل أن يهرب من وقته المحدود الذي سبق به علم الله  حين أرسل إليه الملك، وكان هذا الإنسان في بطن أمه، وقد مضى عليه مائة وعشرون يومًا، أرسل الله إليه الملك، وأمره أن يكتب أربع كلمات: رزقه، وأجله، وعمله، وشقيٌ أو سعيد، فهذا إذن وقت لا فصال فيه ولا رجعة فيه؛ ولهذا قال: {ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ} فما معنى البروج المشيدة؟ البروج: هي القصور الحصينة المنيعة العالية المرتفعة التي لا يصل إليها الآخرون إلا بصعوبة، فمن كان في هذا المكان، وظن أنه قد ينجو وهو في هذه القصور المشيدة، أو هذه الحصون المنيعة التي تُبنى ليكون فيها الناس خوفًا من الأعداء تحميهم من أسلحتهم ومن هجومهم؛ فشيدت على أعلى ما يمكن أن يكون من ألوان التشييد والتثبيت والمنعة والتحصن، ووضعت لها كل المواصفات لتصل إلى هذا الحد، لو أن هذا الإنسان عاش في هذه البروج العسكرية المنيعة، أو هذه القصور العالية الحصينة، وظن أنه يهرب من أجله فهو مخطئ:**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **ومَن هاب أسباب المنايا ينلنه** | **\*** | **ولو رام أسباب السماء بسلم** |

**ب. ما يحدث في الكون من خلق الله: إيجادًا وفعلًا:**

**{ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ} أي: أن الله  هو الذي أنعم بها وتفضل بها علينا، لكن إن حدث العكس ووقع بهم القحط، ونزل بهم البلاء والنقص في الأموال والأنفس والثمرات وما إلى ذلك مما يعد شيئًا سيّئًا يستاءون له، يقولون ما ذكر الله : {ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ} {ﯳ ﯴ ﯵ} أي: بشؤم وجودك بيننا، وأنك كنت السبب الذي من أجله حدث لنا ما حدث، ولو لم تكن -أنت وأصحابك- موجودًا عندنا، وفي بلدنا ما كان ليحدث لنا هذا الذي نراه، فبماذا أمر الله رسوله أن يرد عليهم به؟ قال لهم: {ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ} قل كل من عند الله؛ فبيده الخير والشر، وهو الذي يعطي ويمنع، فسبحانه من إله قوي قادر قاهر، ولا بد أن تعرف هذه الحقيقة، وأن الأسباب والمسببات كلها بيد الإله  وأنه يعطي الخير ابتداء، كما أنه  ينزل مقته وغضبه على بعض عباده بسبب ذنوبهم وتقصيرهم، وقد يكون هذا اختبارًا لهم؛ ليرى من يصبر ومن لا يصبر، كما قال تعالى: {ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ} [البقرة: 155- 157].**

**فليس من الشرط في نزول البلاء أن يكون بسبب معصية، إنما قد يكون هذا اختبارًا وابتلاءً لعباده، وأن من يصبر ويحتسب ويفوض الأمر لله  مأجور، الله  كما رأينا- يأمر رسوله  أن يجيب هؤلاء: بأن ما يحدث من حسنات ومن سيئات، ومن خير ومن شر، كل ذلك من عند الله  ولذلك قال: {ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ} هو استفهام تعجبي إنكاري، ينكر الله  على هؤلاء المنافقين الغافلين عن الحقيقة، ومن شاركهم هذا القول من المشركين واليهود وأتباعهم وأمثالهم أن يقول لهم متسائلًا متعجبًا: {ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ} أي: لا يفقهون ولا يفهمون حديثًا أيّ حديث على الإطلاق، ثم أراد الله  أن يلفت أنظارهم إلى مسألة مهمة في هذا المقام فقال: {ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ﰋ ﰌ ﰍ ﰎ ﰏ ﰐ ﰑ ﰒ ﰓ ﰔ ﰕ ﰖ ﰗ ﰘ ﰙ} توجيه الخطاب لرسول الله  تكريم له وتعظيم، والخطاب له في هذا المقام هو خطابٌ لغيره؛ تقريرًا لقضية من أهم القضايا، ذلكم هو قضية الخير والشر، ووقوع الخير والشر بالنسبة للناس، وأن ما يصيب الإنسان من حسنة فهي من الله ابتداء، الله  هو الذي يعطيها، وهو الذي يسديها، وهو الذي يمنحها، لكن ما يصيب الإنسان مما يسوءه من شر فهذا واحد من اثنين: إما أن يكون هذا من باب الابتلاء والاختبار، كما هو شأن رب العزة الإله الكريم مع أنبيائه وأوليائه وأصفيائه؛ يصيبهم بالسيئات، وبألوان الشرور التي تبدو في ظاهرها أنها من الشر رفعة لدرجتهم؛ حتى يمنحهم الفضل والتكريم على صبرهم وجهادهم في سبيل ربهم، وهذه السيئة لها وجه آخر: قد تكون بسبب المعاصي وشؤمها، وهذا هو الذي يكون من معاملة الله  لأهل الشر، وأهل المعاصي والنفاق والضلال، كما قال تعالى: {ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ} [الشورى: 30].**

**وقال الحسن البصري وغيره: {ﰐ ﰑ} أي: بسبب ذنبك.**

**فإذن توجيه هذا لرسول الله : {ﰌ ﰍ ﰎ ﰏ ﰐ ﰑ} إنما يعني به هؤلاء المنافقين، ومن على شاكلتهم من أهل الشرك وأهل الكفر وأهل الضلال، في أنه ما ينزل بهم من قحط ومن نقص في الأموال والأولاد، وما إلى ذلك مما يظنونه من باب السيئة -إنما هذا بشؤم معاصيهم وكفرهم، وخروجهم وردهم، ورفضهم لما جاء به رسول الله  ولهذا جاء قوله: {ﰓ ﰔ ﰕ ﰖ ﰗ ﰘ ﰙ} وفي توجيه الخطاب له  بقوله: {ﰓ ﰔ ﰕ} استمرار لهذا الخطاب الذي بدأ من أول الآية: {ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ﰋ ﰌ ﰍ ﰎ ﰏ ﰐ ﰑ} الله  بين عِظم قدر نبيه  ومنزلته من الله حين قال له: {ﰓ ﰔ ﰕ} فانظر معي إلى هذا التكريم، وهذا التعظيم لرسول الله  وفيه من الرد على هؤلاء المعاندين المكذبين ما فيه، ولإثبات رسالته  فأنت ترى أنه قد اختار الإرسال دون الإنباء، ومعنى ذلك: أنه عبد من عباد الله، اصطفاه الله واختاره، وأنزل عليه وحيه، وأمره أن يبلغ هذه الرسالة، لكن ماذا يعني إسناد الإرسال إلى قوله: {ﰓ}؟**

**هذا رسولنا الكريم العظيم المصطفى المختار  الله -جل وعلا- هو الذي أرسله، والله  يقول: {ﰓ ﰔ ﰕ} فترى أن الإرسال مسند إلى ضمير المعظم لنفسه في قوله: {ﰓ} ليدلك على عظمة الله  وقدرته وما اتصف به من صفات الجلال والكمال، وأنه من منطلق هذه العظمة هو الذي اختار عبده محمدًا  ليكون رسولا مبلّغًا عنه هذه الرسالة إلى الناس {ﰓ ﰔ ﰕ} في هذا بيان لعموم رسالته  وأنه ليس مرسلًا إلى العرب خاصة، ولا إلى الجزيرة العربية فحسب، ولا إلى مجموعة من البلاد المجاورة لجزيرة العرب، إنما هو نبيٌّ مرسل إلى بني الإنسان في كل زمان، وفي كل مكان، والأدلة على عموم رسالته  كثيرة تقرؤها في كتاب الله، وتراها في سنة رسول الله ، وحين يقول له: {ﰓ ﰔ ﰕ} فيأتي بكلمة: {ﰕ} بعد كلمة:{ﰓ} وكانت تكفي في أن يقول: {ﰓ ﰔ} ولكنه جاء بقوله: {ﰕ} ليبين عظم هذا الرسول؛ فالتنكير هنا يفيد التعظيم، فهو رسول عظيم اختاره الله؛ ليكون رسولًا لبني الإنسان، فصلوات الله وسلامه عليه.**

**ثم يأتي الختام: {ﰗ ﰘ ﰙ} أي: شهيدًا على أنك رسول الله، وأنك صادق في كل ما ذكرته بلاغًا عن الله، والله  أنزل على رسوله الكتاب، وجعله  لا ينطق إلا بوحي من الله: {ﭑ ﭒ ﭓ ﭔﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ} [النجم: 1- 5]**

**فهو  شهيد على ما كان من أمر رسوله  أو أن الله  هو الشهيد على عباده بما يعملون من خير أو شر، وسوف يحاسبهم على أعمالهم، وما يعتقدون فيها، وما قالوا من هذا القول، وما اعتقدوا من هذا الاعتقاد، وأن الحسنة من عند الله، وأن السيئة من عند رسول الله  فهذا فهم عاطل باطل، الله شهيد على أقوالهم وأفعالهم، وسوف يحاسبهم على ذلك عما قريب حين ينتقلون من الدار الدنيا إلى دار الآخرة.**

**ج. طاعة رسول الله  طاعة لله تعالى:**

**ثم تأتي ختام هذه الجولة بقوله: {ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ} لتكون هذه الآية بلسم الشفاء والدواء والعلاج، تطمئن رسول الله  وتسليه وتواسيه عما كان من أمر هؤلاء في أقوالهم وأحوالهم وسلوكهم؛ لتقرر حقيقة لها أهميتها في هذا المقام هي: أن طاعة رسول الله  إنما هي في الواقع طاعة لله؛ لأن هذا الرجل قبل أن يوحى إليه كان واحدًا من عامة الناس، نعم هو واحد مميز، الله  تولى حفظه ورعايته، واعتنى به العناية الكاملة؛ حتى أقامه إنسانًا سويًّا مستقيمًا، طاهرًا عفيفًا، لم يتلوث بما كان فيه أهل الجاهلية من حماقات ومعاصٍ وخروج على كل مبادئ الحق من التوحيد والتخلق بالأخلاق الكريمة والمعاملة الفاضلة، فالله  حمى هذا الإنسان وحفظه من كل ذلك، إلى أن وصل إلى السن الذي يخاطب فيه وينادى، فأرسل إليه ملك الوحي جبريل # يبلغه بما نعرف من قول الله تعالى: {ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ} [العلق: 1] وهي تتضمن أن محمدًا قد وقع عليه الاختيار ليكون رسول رب العالمين إلى العالمين، بل إلى الثقلين من الإنس والجن، وأن رسالته ستكون عامة شاملة إلى يوم القيامة؛ فإذن هذا الذي تسمعه من هذا الرجل إنما هذا كلام الله ، فكونك تطيع رسول الله  فيما يأمر به، وفيما ينهى عنه وفيما يوجه من توجيهات فيها السعادة في الدنيا وفي الآخرة -هذا إنما يطيع الله : {ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ} وما أعظمها من منزلة لهذا الرسول وتكريم وتشريف في أن الله جعل طاعته طاعة لله  كما أن محبة رسول الله  تعني أنك تحب الله جل وعلا؛ ولذلك قال تعالى: {ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ} [آل عمران: 31] وجاء في الحديث الذي رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله : «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصى الأمير فقد عصاني» يقصد رسول الله  بالأمير: الذي يحكم بشرع الله، وهدي الله وسنة رسول الله  فهذا الأمير إنما ينفذ ما أمر به رسول الله  وما أمر به رب العزة والجلال، فمن يعصِ الأمير إنما يعصي أوامر الله  ويعصي رسول الله  وتأكيدًا لهذه الحقيقة ترى قول الله تعالى: {ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ} أي: ما عليك منه، إن عليك إلا البلاغ، فمن اتبعك سعد ونجا، وكان لك من الأجر نظير ما حصل عليه، ومن تولى عنك خاب وخسر، وليس عليك من أمره شيء، كما جاء في الحديث: «من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه».**

**المراجع والمصادر**

1. **ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ، (تفسير القرآن العظيم) دار الراية للنشر والتوزيع، 1993م.**
2. **الشوكاني، محمد بن علي الشوكاني، (فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير) دار الكتاب العربي، 1999م.**
3. **الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد الشنقيطي، (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن) بيروت، دار الفكر، 1995م.**
4. [**أبو السعود محمد بن العمادي الحنفي**](http://www.adabwafan.com/browse/entity.asp?id=13149)**، (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) تحقيق: محمد صبحي حسن حلاق، دار الفكر، 2001م**
5. **الأندلسي، أبو حيان الأندلسي، (البحر المحيط) دار الكتب العلمية، 2001م.**
6. **أبو الطيب صديق بن حسن بن علي الحسين القنوجي البخاري، (فتح البيان في مقاصد القرآن) راجعه: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، إدارة احياء التراث الإسلامي، 1989م**
7. **أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، (الكشاف) دار الكتب العلمية، 2003م**
8. **الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، (جامع البيان في تأويل القرآن) تفسير الطبري، دار الكتب العلمية، 1997م**
9. **الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبدالله الحسيني الألوسي, (روح المعاني) دار الكتب العلمية، 2001م**
10. **الجزائري، أبو بكر جابر بن موسى الجزائري، (أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير) مكتبة العلوم والحكم، 1994م**
11. **السعدي، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، (تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) دار ابن الجوزي، 1994م**
12. **الغرناطي، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي الغرناطي، (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) لبنان، دار الكتب العلمية، 1993م.**